بيت الذات

قراءة في لوحات خالد نبوي

سوسن ناجي

كلية دار العلوم – جامعة المنيا – مصر

sawsannagy@gmail.com

الملخّص:

تستحضر لوحات الفنان المصري "خالد نوبي"* بيوت الماضي المصري القديمة، كحالة وجودية تعكس احتياج الفنان إلى استرجاع الذاكرات. أضف إلى أن استحضار أدوات ومقتنيات هذا البيت في اللوحات هي محاولة من الفنان لرأب التناثر والتشظي داخل الذات لاستحضار قيم الألفة والضم والمواكبة لزوايا الروح، لذا كان هذا البيت هو المعادل الموضوعي للذات والهوية المصرية، بمعنى أن استحضار هذا البيت بكل مقتنياته وتدرجاته اللونية هي محاولة دؤوب لنفي الغربة واسترداد الذات، واحياء الهوية.

Abstract :

The paintings of the Egyptian artist "Khaled Nubi" evoke the memories of the ancient Egyptian houses, as an existential state that reflects the artist's need to recall these memories. In his paintings, the artist tries to recall the gadgets and belongings of the ancient Egyptian houses as an attempt to heal the scattering and fragmentation within the self, and to evoke the values of intimacy and inclusion and to keep pace with the corners of the soul, so these houses were the objective equivalent of the Egyptian self and identity, meaning that bringing these houses with all of their belongings and color gradations is a tireless attempt to banish alienation, recover oneself, and revive one’s identity.

* فنّان مصري، عضو نقابة الفنانين التشكيليين، عضو أتيليه القاهرة للفنانين والكتاب، عضو جمعية أصالة لرعاية الفنون التراثية والمعاصرة... عضو مجلس إدارة بنادي التذوق البصري بقصر ثقافة المنيا

المعارض العامة: معرض طواف تحت رعاية الهيئة العامة لقصور الثقافة ٩٨ / ١٩٩٩ وعام ٢٠٠١/ ٢٠٠٢.. معرض ألوان مصرية بالمعهد الثقافي الإيطالي عام ٢٠٠٠.. ومعرض مشترك ٢٠٠٤تحت رعاية محافظة المنيا، معرض بجامعة المنيا بالمؤتمر الدولي الثالث والرابع والخامس عام ٢٠٠٦/ ٢٠٠٧ / ٢٠٠٨.

البيت (بيت الذات)

" إن البيوت التي فقدناها إلى الأبد

تظل حية في داخلنا.

وهي تلح علينا،

لأنها تعاود الحياة

وكأنها تتوقع منا أن نمنحها تكملة

لما ينقصها من حياة.

ما أروع أن نعيش اليوم

في بيوت الماضي

وأن تتخذ ذكرياتنا فجأة

إمكانية حية للوجود!"(1)

البيت (بيت الذّات)

"البيت هو ركننا الأول في العالم، إنه كما قيل مرارًا كوننا الأول. كون حقيقي... وإذا طالعناه بألفه سيبدو أبأس بيت بيتًا جميلًا... وأينما لقي الإنسان مكانًا، يحمل أقل صفات المأوى، سوف يرى الخيال يبني جدرانًا من ظلال رقيقة، فاللاوعي يقطن في البيت."(2)

إن قيم الألفة موزعة في البيت " الذي ولدنا فيه محفورة بشكل مادي داخلنا... إن البيوت المتعاقبة التي سكناها جعلت إيماءاتنا عادية. ولكننا نندهش حين نعود إلى البيت القديم بعد تجوال عدة سنين. أن نجد أدق الإيماءات وأقدمها تعود إلى الحياة."(3)

لذا كان البيت هو النقطة، أو المنطلق الأولي، الذي ينطلق منه الفنان، –من – " البيت القديم، بيت الفولة، مكان الألفة، ومركز تكييف الخيال، وعندما نبتعد عنه نظل دائمًا نستعيد ذكراه، ونسقط عليه الكثير والكثير من مظاهر الحياة المادية، – أو – ذلك الإحساس بالحماية والأمن اللذين كانا يوفرهما البيت القديم...

فالبيت يجعلنا نضع أنفسنا في أصل منبع الثقة بالعالم... هل كان العصفور يبني عشه لو لم يكن يملك غريزة الثقة بالعالم. " (4)

فالبيت إذًا هو معطى وجودي " وإدراكنا له تأكيدًا على وجودنا بأبعاد يستحيل قياسها في نقطة، قد تقع بين الوعي والحلم، ولكنها تقع حتمًا في القلب، مما نسميه بالحياة، أو الكينونة البشرية، كما إنها في القلب من التجربة التاريخية نفسها، وهي التجربة الزمنية الماورائية، التي يفيض بها كل ما يحط عليه البصر، أو ترتفع منه العين." (5)

لذا كان البيت هو كل شيء، بل إن " ذكريات العالم الخارجي لن يكون لها قط نسق ذكريات البيت. خلال أحلام اليقظة تتداخل مختلف البيوت التي سكناها، ونحتفظ بكنوز الأيام السالفة. وعندما نسكن بيتًا جديدًا تتوارد إلينا ذكريات البيوت التي عشنا فيها من قبل –وبهذا –فإننا ننتقل إلى أرض الطفولة غير المتحركة كالذكريات البالغة القدم. نحن نعيش تثبيتات السعادة."(6)

فالبيت هنا إذًا هو بيت الذاكرة، ونحن عاجزون "عن معايشة الاستمرارية التي تحطمت، –لكن –نستطيع أن نفكر فيها –فنيًا –بمستوى تجريدي... عبر مقصورات الوعي" (7) والخيال.

فالبيت هنا يحمي أحلام اليقظة " ويتيح للإنسان أن يحلم بهدوء... ونظرًا لأن ذكرياتنا عن البيوت التي سكناها نعيشها مرة أخرى كحلم يقظة، فإن هذه البيوت تعيش معنا طيلة الحياة – حيث –يمنح الماضي والحاضر والمستقبل ديناميات مختلفة تدمج الأفكار والذكريات، ومبدأ هذا الدمج وأساسه هو أحلام اليقظة... فبدون البيت يصبح الإنسان كائنًا مفتتًا." (7)

لذا كانت الكتابة التأويلية والتي تقدمها لنا الفنون التشكيلية أكثر قدرة وعمقًا من كتابة السيرة الذاتية (النظرية) لكونها تتصل برصد مواقع الألفة (البيت) بل وتقوم بتجريدها. ومثل هذه الأماكن تعد مراكز مصيرية لكونها تعد أكثر ارتباطًا بالذاكرة، أو أكثر إلحاحًا عليها، أو لكونها تعمل على تخليص هذا التاريخ الذاتي من روابطه العابرة (الذكريات العابرة) والتي تتمثل في كتابة بضع تواريخ عبر كتابة السيرة، الأمر الذي يغلب خاصية التأويل والمرتبطة بقدرات الفنون التشكيلية عنها في فنون كتابة السيرة.

شكل رقم 1 – زيت على توال – مقاس 80x100 – عام 1998

"ولا يزال فننا البصري، يتطور ويساير العالم، منطلقًا من بيئته الاجتماعية كأحد المكونات الجوهرية للنشاط الإبداعي. حيث يحرز الفنان منها على كمية كبيرة من المعلومات من بيئته. ومن خلال تمازجها مع الذات المبدعة يتم صوغها في أشكال فنيه جديدة. تتناغم مع إبصاره للعالم من حوله، فيصبح يعبر عن حالات إنسانية مستمدة من محيطه ينتج عنها إبداع صادق وهادف. يكمن في انصهار الموضوعية مع ذاتية الفنان فيحقق توازن العلاقة الصحية بين المبدع والمتلقي." (8)

ويعد الفنان " خالد نوبي " أنموذج لنمط هذه العلاقة حيث انصهرت ذاتيته مع البيئة المحيطة، وثبتت فرشاته عند ركن البيت، بكل زواياه وأنماطه في القرية المصرية على وجه أدق (صعيد مصر) وتضمنت لوحاته وضعية هذا البيت في مختلف حالات الطقس، وفي مختلف أزمنة ماضي الذات، لذا انطوى هذا البيت على سحر وبراح الريف وخصوصيته.

والبيت هنا هو طراز البيت المصري القديم لذا فهو بيت الذكريات، وروح المكان هنا وصبغته هي هوية الذات وبصمتها، وفرشاة الفنان هنا هي أداة التحليق التلقائية، التي تتوازى بساطتها مع سيكولوجية وبساطة المكان الريفي في قرى صعيد مصر

شكل رقم 2 – ألوان أويل باستيل – مقاس 50x40 –عام 2016

والفنان خالد عبد الراضي يغوص في الموروث الريفي الصعيدي المصري، فتظهر في لوحاته العادات والتقاليد ومواسم الفرح، كما تظهر تفاصيل الأزياء والملابس للنساء الريفيات، وفي ذات المواسم تظهر خصوصية الحصان والحمار الريفي، وبهذا الإدراك يقدم الفنان براح البيت الريفي، وخصوصيته بما ينطوي عليه من أبواب ومتاع، قد يتمثل في: الدواجن تارة، وقد يتمثل في مقتنيات البيت الريفي الخاصة

شكل رقم 3 – زيت على توال – مقاس 80x90 – عام 1996

وجماليات البيت الريفي عند " خالد نوبي" ترسم حالة من حالات توحد الفنان الصوفي بالمكان، خاصّة حين تستلهم فرشاته هذا الموروث الريفي الثقافي، فتبدو كجزء منه، بل هي أحد ملامحه، حيث ترتدي نفس أزياءه، وتتلون بنفس ظلاله وشموسه، فتبدو متسقة معه، بل متناغمة في دينامية حركتها مع حركته البسيطة الهادئة، الأمر الذي يعكس بساطة الذات وعفويتها. وهنا يصبح المكان/البيت في لوحات الفنان هو بيت الذات.

شكل رقم 4 – ألوان جواش – مقاس 65x45 – عام 2017

شكل رقم 5 – زيت على توال – مقاس 60x80 سم – عام 1993

شكل رقم 6 – ألوان أويل باستيل – مقاس 20x20 سم – عام 2020

هكذا تتأتى ملامح وسيكولوجية البناء الفني لدى الفنان" خالد نوبي" لتبدو نتيجة تلقائية من وجود علاقة حميمة بين الشكل المتماسك المنساب من أعماق الذاكرة الريفية المصرية والمضمون التعبيري المتأتي عن إحساس الفنان بالبيئة من حوله (المكان الريفي في صعيد مصر) حيث يراها الفنان ويحورها في داخله لتنتظم في النهاية في صورة علاقة حوارية بين اللوحات بعضها والبعض، كذلك هناك علاقة مع البراح والخضرة المنبسطة في القرية وهو حوار أقرب إلى صهر الأحاسيس الداخلية للفنان مع الواقع ومع الصور المحيطة من البيئة المرئية. ومن خلال هذا التفاعل الجدلي يتمخض له الموضوع التعبيري المتكامل والدال على الواقع الريفي القديم في صعيد مصر (المنيا) وما انطوى عليه من صور متباينة متناغمة متشابهة مع الموجودات في هذا الواقع.

شكل رقم 7 – زيت على توال – مقاس 90x85 سم – عام 2004

شكل رقم 8 – زيت على توال – مقاس 70x60 سم – عام 2005

شكل رقم 9 – ألوان جواش – مقاس 40x30 سم – عام 2006

الخاتمة:

وهنا يبدو الفن التشكيلي بمثابة حالة شفائية للذات، وإذا كان البيت هو ركن ألفة الذات وملاذها من التفتت أو الانصهار. فالفن هنا أيضًا يبدو كملاذ آمن للذات، حالة وجودية، شفائية، تركن إليه الذات، كمتكأ للصمت، والسكون في ذات الوقت، متكأ للتمحور حول الذات، ولملمة فتات النفس...

وهكذا تعد لوحات الفنان "خالد عبد الراضي نوبي" هي الأنموذج التطبيقي الذي توافرت في لوحاته – على مدى سنوات إنتاجه الفني – النسق التشكيلي الخاص، والمتميز بالوحدة الموضوعية، حيث كان البيت القديم هو الوتد والمنطلق الذي حلقت في سمائه فرشات هذا الفنان، بل كان البيت الريفي القديم بمثابة الصورة الشاعرية الكامنة في أعماق اللاوعي، دائمة التوهج والتجدد والتنوع في وجدان الفنان، الذي منحنا صورة الماضي المصري للقرية المصرية بكل بساطته وحقيقته، وتكمن جماليات هذا الماضي في أنه يتجذر بداخلنا مرة أخرى كلما نظرنا حيث تنتقل الصورة من الوعي مباشرة كنتاج مباشر إلى القلب والروح، بل قدد تتردد أصدائها في أحلام اليقظة.. ويبقى لدينا سؤال: كيف استطاعت تلك الصورة أن تبدو وكأنها تكثيف للنفس بكليتها.

هوامش الدراسة

1. غاستون باشلر: جماليات المكان (ترجمة غالب هلسا).
(القاهرة – المؤسسة الجامعية للدراسات – الطبعة الثالثة – 1987م – ص74).
2. نفسه، ص.36،40.
3. نفسه، ص.43.
4. نفسه، ص.9.
5. أنا والمكان: جبر إبراهيم جبر.
(بيروت – مجلة الجيل – المجلد 11 – العدد 11 – 1990م – ص8).
6. غاستون باشلر: جماليات المكان، ص.37.
7. نفسه، ص37-39.
8. وحيد البلقاسي: معرض في كتاب، ص.6.